

الفردوس المفقود لل-ton في الرؤية النقدية المعاصرة

Abstract

John Milton's *Paradise Lost* not only enjoys a peculiar place in English literature but also in the sphere of international literature. The epic got popularity among readers the moment it appeared for the first time(1667) as well as it gained attention of contemporary literati & critics. The intellectual & literary discourse on this epic is also unique in quality quantity & diversity. The secret is in the work itself, as the form & the content of the epic, both, have been provoking a host of philosophical, religious & literary issues through out intellectual history of mankind.

The present article: **الفردوس المفقود لمilton في الرؤية النقدية المعاصرة** attempts to cover a spectrum of matters & questions raised by European critics & writers. The most important elements, that have been elucidated, includes the style, sublimation, basic theme, image of Satan & hero in *Paradise Lost*.

The English works, about *Paradise Lost*, have usually not been rendered into Arabic. For this reason & for the purpose to maintain originality, English sources have been utilized to shape up the body of the article. Hence the writer is to be addressed for any different suggestion or idea relating to the translated texts & criticism.

The effort has been made to include as much dimensions as possible. For this purpose, brevity & summarization were the only option available.s

الفردوس المفقود لمilton في الرواية التقديمة المعاصرة

الدكتور انعام الحق غازى

أستاذ مساعد ومسئول قسم الترجمة والترجمة الفورية

بكلية اللغة العربية الجامعية الإسلامية العالمية إسلام آباد باكستان

توطئة :

يعتبر جون ملتون (John Milton 1608 - 1674م) من أبرز شعراء الأدب الإنجليزي، واعتبر ملحنته اليسوعية بالفردوس المفقود (Paradise Lost) التي كتبها في عام 1667م وتعده ملحنته هذه في رأي جميع النقاد من أعظم الأعمال الشعرية في اللغة الإنجليزية.

وقد عاش ملتون حياة مليئة بالمتاعب المفجعة؛ فقد فقد ابنه الأصغر في سنة 1652م، ثم مات بثان فقد زوجته في العام نفسه. وبعد أربع سنوات يتزوج مرة أخرى حين يفقد زوجته الثانية وطفلتها الرضيعة، وفي سنة 1663م ينحوض ملتون ثمان تجربة جديدة حيث يرتبط بسيدة تدعى اليزابيث ميشال، ويظل يتخطى في هذه الحياة إلى أن توفي في سنة 1674م. (1)

يوضح ملتون في الفردوس المفقود كيفية فقدان إنسان للجنة ثم يقدم الأسباب التي أدت إلى ذلك حيث يروي قصة آدم وحواء مع الشيطان وكيف استطاع الشيطان أن يغويهما بشتي الطرق وذلك عن طريق تحريضهما على الأكل من الشجرة التي تعرف بشجرة المعرفة.

ويحتوى الفردوس المفقود على قضايا إنسانية وفكرية وفلسفية وأدبية ظلت تشغل عقول الدارسين والنقاد على مرّ القرون الطويلة. وقد ظهرت آراء متنوعة ومتضاربة نتيجة لتفكير فيها.

والمقال هذا محاولة متواضعة لاستعراض آراء النقاد حول هذا العمل الأدبي العظيم.

تكشف الدراسات النقدية حول الملحمة الشعرية الإنجليزية الفردوس المفقود لمilton (2) عن آراء صاحبها تجاه الأدب عموماً والشعر خصوصاً، فهو يرى أنّ الهدف الأساسي للشعر هو تعليم الناس ولا يقلّ الشعر - في هذا المجال - فائدةً عما تعلّمه الأخلاق ولكنّه إلى جانب ذلك يقرر أيضاً أنه ينبغي للشعر أن يمتع القارئ، فالمتعة أو السعادة إحدى مكونات الشعر في نظره وقد إشار ملتون

الفردوس المفقود ملتوون في الرؤية التقديمة المعاصرة

أكثر من مرّة في ملحّمته إلى أنّ الشاعر الإبداعي الناجح دائمًا يكون مستلهماً، فالاستلهام في رأيه له دور كبير في نجاح الشاعر (3).

ولست بصدق عرض نظرياته الأدبية أو الشعرية بقدر ما يهمني تلخيص آراء الدارسين في الغرب، لملحّمته الشعرية، التي لفتت أنظار النقاد والباحثين لحظة ظهورها. يقول أحد معاصرى ملتوون وهو جون دريدان

(Jhon Dryden 1663-1700) : "إنّ هذا الرجل غلبنا وغلب على سابقينا من فول شعرائنا جميعاً" (4).

و قبل استعراض آراء النقاد والدارسين ومناقشاتهم حول هذه الملحّمة، أودّ أن أسجل هنا ملاحظتين مهمّتين وهما:

- 1 جُلّ الآراء والمناقشات النقدية تدور حول الجزئين الأول والثاني له فقط وذلك لأنّ الأجزاء الباقية للفردوس المفقود في معظم الحالات. لم تصل إلى ذلك المستوى الفيّ الرفيع الذي يعتبر أحد عناصر الأعمال الأدبية الخالدة.
- 2 كان النقاد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، معجبين به وبجميع عناصره الشعرية من أسلوب وفكرة وشخصيات، ولكن معظم الدراسات النقدية في القرن العشرين تقلّل من أهميّته الأدبية والفنّية.

وبعد الفحص والنظر في المادة التي تجمّعت لدىّ قمت بتقسيمها إلى عناصر عشرة، وحاولت أن أرصد أهمّ ما قيل عن كلّ عنصر - تحت عنوان جانبي - من عناصر هذه العمل الفريد في أسلوبه ومح-too. وأمّا العناصر التي يتناول هذا المقال بالحديث عنها فهي:

أسلوب ملتوون ولجوءه إلى الشعر غير المقوى وتوفّر السبّو الأدبي فيه والحديث عن فكرته الأساسية وجود الإشارات إلى السيرة الذاتية في الفردوس المفقود وصورة الشيطان والعنصر البشري فيه والمناقشة حول بطله بالإضافة إلى عناصر أسلوبية وأدبية مقارنة مثل التشبيهات ومزج العناصر الهيلينية والعبرانية في عمله هذا.

أسلوب الفردوس المفقود:

ظلّ أسلوب الفردوس المفقود محل خلاف كبير بين النقاد على مرّ القرون، فهناك من يسمّيه الأسلوب الرفيع (Grand Style) (5). وهناك من يقول، مثل كيتس الشاعر الناقد

الفردوس المفقود لمليتون في الرؤية النقدية المعاصرة

الإنجليزي (Keats 1795م-1821م): "إنه أفسد لغتنا فلا بد أن يحفظ على أسلوبه فقط دون أن يتبع أو يقاس عليه".(6)

ويرى لويس (Leavis 1895م-1978م) أنه يجعلنا نتمتع بالفاظ فقط ولا يسمح لنا أن نحس بما وراء الألفاظ من المعانى والدلائل، وأنثناء قراءتنا له كثيراً ما نضطر أن نقول إن أسلوبه جزل الألفاظ أو أنه يهتم بالشكل أكثر.(7)

وقد أتّهم مليتون بفقد التنوع في أسلوبه أيضاً وبغير اداة جمالاً طويلة مسلسلة وحملة وباستعمال كلمات في غير دلالة المعروفة والمعتادة لدى الناس.(8)

وقد دافع بعض النقاد عن أسلوبه قائلاً: "إن الأسلوب الرفيع ضرورة في مثل هذا العمل الأدبي، فالملحمة في أمّ الحاجة إلى الأسلوب الإبداعي غير العادي والمعتاد لدى الناس والتسلسل في الجميل مطلوب أيضاً في عمل تكوين الملحمه".(9)

ومن الاعتراضات التي وردت من قبل النقاد على أسلوبه بأنه يعتمد على التصنيع وعلى استعمال الكلمات الأجنبية لغرض موسيقى ارتضى به هو، ومن عيوب أسلوبه أيضاً أنه لا يتميز بدقة التعبير والصدق الفنى. يقول تي-إيليوت (T.S.Eliot 1888م-1963م):

"يمكننا أن نعتبر التصنيع خطأ فاحشاً في أسلوبه الشعري، فهو يستبدل شعورياً لغة مصطنعة بلغة معتادة فطرية" وكان إيليوت يستغرب من بدايته الملحمية بـ:

Of man's first.....

ويتساءل هل تبدأ جملة إنجليزية بحرف: "of"! ولكن نفسه بعد ذلك تخفي عن رأيه هنا واعتبر بعده مليتون عن الأسلوب العادي "إبداعه هو في لغته الشعرية فهو أحد العناصر المهمة التي جعلت عمله عظيماً".(19)

يقول ناقد "إن أسلوبه يقوم على أساس الكلمات الواضحة وترتيبها الفطري وتركيزها المبتنى" ويرى ميسيلو آرنولد أنه "لا شك أن مليتون في بيانه القوى المؤثر وإيقاعه الجميل يساوى ورجيل ودانتي" (11) هذا هو الناقد الذي أول من استعمل مصطلح الأسلوب الرفيع - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - ويقول في تحديد معناه:

"يظهر الأسلوب الرفيع في الشعر إذا عاج شاعر ذو موهبة وقوة إبداعية موضوعاً جاداً بالبساطة والدقة في التعبير".

الفردوس المفقود لمليتون في الرؤية النقدية المعاصرة

وقد اختلف النقاد في هذا التعريف، يقول سانس بري معلقاً عليه: "إنه (أي الأسلوب الرفيع) شكل جديد لنزعـة الكلاسيكية الجديدة ضد نزعـة الرومانسية الغامضة المبهـمة والمغـرقة في الخيـال" (12).

وعلى أية حال فإن صاحب هذا المصطلح قام بالمقارنة بين قطعـات مختارـة من أعمال هو ميروس وورجـيل ودانـتي وشـيكسبـير (13) من ناحـية وبين قطعـات مختارـة من الفردوس المفقود لمليتون من ناحـية أخرى في ضوء مفهـوم مصطلـحـه الأسلوب الرفـيع، وانتـهى من هـذه المقارـنة إلى أن القدرة الإبداعـية الرفـيعـة والـتي تتوافـر عند شـعـراء قـلـائلـ في العـالـمـ هي الدـعـامةـ الكـبـرىـ لأـسـلـوبـهـ الرـفـيعـ.

وهـذا يـذـكـرـناـ ماـ يـسـتـقـرـىـ بـ السـمـوـ الأـدـبـ (وسـيـائـىـ تـفـصـيلـ ذـلـكـ تـحـتـ عـنـوانـ مـسـتـقلـ)ـ ويـقـضـدـ بهـ العـلـوـ وـالـبـراـعةـ الـلـغـويـينـ فـهـوـ الـذـىـ يـجـعـلـ الـأـدـبـ أوـ الشـاعـرـ عـظـيمـاـ وـيـعـطـىـ لـعـبـلـهـ شـهـرـةـ أـبـديةـ.

ونـحنـ إـذـاتـعـقـنـاـ فـيـ هـذـنـ المـصـطـلـحـيـنـ (الـأـسـلـوبـ الرـفـيعـ وـالـسـمـوـ الأـدـبـ)ـ وـجـدـنـاـ أـثـمـاـ يـلـحـانـ إـحـاحـاـشـدـيـداـ عـلـىـ وـفـرـةـ جـوـدـةـ عـمـيقـةـ وـقـوـةـ مـتـحـرـكـةـ فـيـ الشـعـرـ، وـعـلـىـ أـنـهـ لـابـدـأـنـ يـكـوـنـ خـالـيـاـ مـنـ التـكـلـفـ وـالـمـحـسـنـاتـ الـمـصـطـنـعـةـ.

وـثـمـةـ دـارـسـوـنـ غـاصـوـاـ فـيـ تـحـلـيلـ أـسـلـوبـ الـفـرـدـوـسـ المـفـقـودـ وـمـقـارـنـتـهـ بـالـنـصـوـصـ الـجـيـدةـ الـأـخـرـىـ يـقـولـ دـوـنـلـدـ رـ.ـبـرـسـ،ـ وـالـذـىـ درـسـ أـسـلـوبـهـ وـقـارـنـهـ بـتـرـايـ لوـسـ وـ كـرـيسـداـ"ـ & Troilus & Cressidaـ لـشـيكـسـبـيرـ،ـ فـهـوـ يـقـولـ مـوـضـعـاـنـاـصـرـ النـثـرـ الـحـاـزـ الـمـلـهـبـ وـالـمـشـيرـ فـيـ الـفـرـدـوـسـ المـفـقـودـ:ـ إـنـ لـغـةـ شـيكـسـبـيرـ دـارـجـةـ مـنـ نـاحـيـةـ وـلـاـ تـنـسـمـ بـالـبـاسـاطـةـ وـالـوضـوحـ مـنـ نـاحـيـةـ أـخـرـىـ،ـ وـلـكـنـ أـسـلـوبـ مـلـتـوـنـ أـصـيـلـ وـمـؤـسـسـ عـلـىـ شـكـلـيـاتـ النـثـرـ الـكـلاـسـيـكـ،ـ وـرـغـمـ ذـلـكـ يـتـسـمـ بـإـحـكـامـ الـكـلـمـاتـ وـعـقـمـ التـرـاـكـيـبـ وـوـضـوحـ الـأـفـكـارـ"ـ (14).

هـنـاكـ مـجـمـوعـةـ مـنـ النـقـادـ،ـ كـمـ اـسـبـقـتـ إـلـاـشـارـةـ إـلـىـ ذـلـكـ.ـ الـذـينـ لـمـ يـعـجـبـوـ بـأـسـلـوبـ مـلـتـوـنـ،ـ فـهـمـ يـرـوـنـ أـنـ إـلـهـامـ وـالـعـمـومـيـةـ مـنـ خـصـائـصـ أـسـلـوبـهـ يـقـولـ الـبرـتـ كـوكـ:

"ـنـحنـ نـحـسـ بـقـوـةـ شـعـرـيـةـ فـيـ إـبـاهـ مـعـرـوفـ لـدـىـ النـاسـ وـهـوـ مـاـ أـشـارـ إـلـيـهـ (مـيـكـالـ)ـ وـالـنـقـادـ الـجـدـالـذـينـ يـقـدـرـونـ الـدـقـةـ وـالـإـحـكـامـ فـيـ التـعـبـيرـ وـيـعـجـبـوـنـ بـهـمـاـ،ـ وـلـاـ نـجـدـ ذـلـكـ عـنـ مـلـتـوـنـ،ـ فـالـذـىـ فـجـدـ عـنـهـ هـيـ النـغـيـاتـ الـمـتـرـدـدـةـ فـيـ الصـوتـ وـالـمـعـنىـ،ـ وـهـوـ يـفـعـلـ ذـلـكـ لـأـنـ هـدـفـهـ لـيـسـ الـدـقـةـ بـلـ الـعـمـومـيـةـ،ـ فـاـنـظـرـ مـشـلـاـئـ كـلـمـاتـ الـإـلـهـانـ (man)ـ وـالـشـمـرـةـ (Fruit)ـ وـالـشـجـرـةـ (Tree)ـ فـيـ الـأـبـيـاتـ الـأـوـلـىـ لـلـمـلـحـمـةـ،ـ فـإـنـهـاـ استـعـبـلـتـ اـسـتـعـبـلـاـ عـادـيـاـ وـبـالـتـالـىـ تـنـسـمـ بـالـعـمـومـيـةـ وـلـاـ تـعـطـىـ أـىـ نـوـعـ مـنـ الرـمـزـ وـالـإـيحـاءـ،ـ وـذـلـكـ لـأـنـ الرـمـزـ وـالـإـيحـاءـ يـتـطـلـبـانـ تـوـظـيفـ الـعـنـاصـرـ وـاستـغـلـالـهـاـ فـيـ نـظـامـ،ـ وـمـحاـواـلـاتـ مـلـتـوـنـ الشـعـرـيـةـ كـلـهاـ بـعـيـدةـ عـنـ ذـلـكـ"ـ (15).

وقد لاحظ بعض الدارسين أن أسلوبه الشعري يرتفع ويصبح بارعاً إذا ابتعد ملتوون عن شعوره باللغات القديمة أو الإغريقية واللاتينية(16).

لجوء ملتوون إلى الشعر غير المقفى:

يتكون بيت الشعر في الفردوس المفقود عادةً من عشرة مقاطع وخمس نبرات في النغمة الصاعدة. وقد اختار ملتوون الشعر غير المقفى في ملحنته لأنه كان يعتقد أنه هو القادر فقط على التعبير عن الأفكار العالية، وهو الذي يتسع فقط لبيان المواقف الضخمة والمشاعر القوية.

يرى سانس بري أن المقطع الشعري الإنجليزي التقليدي (Stanza) (والذى يتكون عادة من أربعة أبيات) لم يكن يتسع للموضوع الذى تناوله ملتوون، ولذلك احتاج إلى إطار أوسع ليتخلص من ضيق المقطع التقليدى وليتمتع بحرية الفقرة الشعرية المتنوعة التي يوفرها الشعر غير المقفى فقط وراح يقول:

"إن إدخال ملتوون الفقرة الشعرية (Verse Paragraph) يعتبر مسامحة ذات قيمة في الفن الشعري الإنجليزي، وإنّه نجح في إعطاء سمة نغمة مسلسلة لفقراته الشعرية"(17).

تحدى النقد كثيراً عن ملأ الموسيقى الشعرية في الفردوس المفقود ف قال بعضهم إن الجمال الموسيقي فيه قوى ومؤثر إلى درجة لا يقدر القارئ أو المتلقى على مقاومته خاصةً إذا أنشدت الأبيات بطريقة سليمة.

وقد لوحظ التعبير الموسيقي فيه أيضاً حيث يلعب كل صوت ووقفة أو سكتة بين الأصوات والكلمات دوراً في إكمال معنى الفقرة الشعرية ونقله إلى الذهن أولى بعبارة أخرى إن نغمة شعرة أيضاً تعبر عن العواطف والمشاعر.

ولكن إيليوت لا يوافق على هذه الملاحظات ويرى العكس أى أن القارئ أو المتلقى يحسن بانفصال التأثير في الفردوس المفقود الذي يجعل تشقيق عناصره ممكناً، فلذا يجب أن نقرأه بطريقتين مختلفتين: أولاً للنغمة فقط وثانياً للمعنى فقط.

وقد أجابت هيلن درب شاير، عنه قائلةً "إن الصوت والمعنى لا ينفصلان في الفردوس المفقود، لأنَّ كل صوت ومقطع أو وقفه بين الأصوات والمقاطع يؤدّي إلى معنى" ولم تكتف هذه الدارسة بهذه الملاحظة فقط، بل راحت تحلّل الفقرات الشعرية لتبين أن المزج والتركيب بين الصوت والمعنى أعمق وأقوى بحيث يصعب فصل أحدهما عن الآخر(18).

2- السمو الأدبي في الفردوس المفقود:

أدرك النقاد منذ القرن الثامن عشر، هذا العنصر في شعره واعتبروه من خصائص الفردوس المفقود المميزة ولكنهم اختلفوا في تحديد مفهومه؛ فالكتور جانسن (ناقد إنجليزي 1709م-1784م) يرى أن السمو الأدبي يكمن في قوته المتخيلة البارعة، فهو يقدر على توسيع خيال القارئ وعلى خلق الدهشة والتعجب في موقف السعادة والسرور.

ويرى أيديسن أن السمو يتكون من علّة أفكاره فهناك شعراً ينافسونه في خصائص أخرى للشعر ولكن لا أحد من القديم والحديث (ماعدا هوميروس) يُنافسه في عظمة العواطف وقوة المشاعر التي تهز القراء.

وقد وضّح كولريج (1782م-1834م) رأيه بمثال قائلًا: إن شخصية الشيطان وعناصرها، كما صورها مليتون، مثل الجرأة والجسارة وعدم الاستسلام مع معاناته من المصائب والمشكلات وما شابه ذلك، فهذه هي الشخصية التي يتكون منها السمو الأدبي. ويرى جريريسن أن وصف مليتون اهتمام الشيطان بأتباعه واستعداده للمناقشة في الجحيم من أحسن نماذج السمو المتخيلة (19).

الفكرة الأساسية للملحمة:

بعد تفكير عميق، استغرق سنوات طويلة، اختار مليتون هبوط الإنسان من النعيم بوصفه فكرته الأساسية لملحمة الشعرية، والتي يعلنها في افتتاحيتها بطريقة تُشعرنا أنه يريد أن يقول إنني سأتناول الموضوع البالغ الأهمية الذي لم يجرؤ عليه أحد الكتاب القدماء شرعاً أو نثراً:

Things Unattempted yet in prose or rime

أى موضوعات وأشياء لها تعالج في النثر والشعر (20)

ويمكن أن يتلخص ما قيل حول الفكرة الأساسية فيه فيما يلي:

في بداية القرن الثامن عشر تحدثت أيديسن عنها قائلًا: كما أن عبقريته تبدو في مظاهر السمو الأدبي كذلك موضوعه، فهو أ Nigel الموضوعات وأرفعها حيث يتضمن كل ما يدور في خلد الإنسان من أفكار وكلّ ما يدل على عظمة ويثير دهشة؛ فإننا نجد فيه عالم الفكر بكل أنظمته، والعالم الهيوي، وخلق الأرض والتعيم والجحيم... وأهم من ذلك أن مليتون تناولها بشاعريته المتدققة •

• وفي القرن التاسع عشر أثى كولريج على الفكرة الأساسية للفردوس المفقود واعتبرها أعلى منزلة وأكثر عالمية وأشمل فأقاً من فكرة هوميروس في ملحنتيه الأوديسا والإلياذة. وقال إِنَّهَا بحكم موضوعهما ملحنتان إغريقيتان ولكن فكرة الفردوس المفقود تتجاوز حدود القومية وتدخل إطار العالمية، فهي تناقش أصل الشر والصراع بينه وبين الخير، وهي تضمّن في حضنها القضايا الإنسانية كلها منها اختلفت نظريات الإنسان وفلسفته تجاه هذه القضايا.

• وفي بداية القرن العشرين سلم النقاد بعالمية الفكرة فيه أيضاً ولكن البعض منهم حاول تفسير هبوط الإنسان تفسيراً أعمق؛ فدراسة هبوط الإنسان بشيء من التعمق تعطينا معانٍ كثيرة منها أن مليتون كان يعتقد أن الإنسان ثنائي التكوين امترج فيه العقل والهوى، فهما قوتان فيه منسجمتان ومتوازنتان في معظم الأحوال، فالرغبات تظهر ولكن تحت سيطرة العقل، ولكن إذا تغلّبت الشهوة على العقل بدا الشر وبدت مأساة هبوط الإنسان. فتغلّب الشهوة على العقل (ويسمّيه مليتون: إلحاد الشر) منبع الفساد، الفساد الأخلاقي والفساد الجسدي والفساد السياسي:

"فما كان آدم يُخدع إلاّ أنه لم يقدر على المقاومة أمام جمال المرأة الساحر".

وهناك من يرى أن فكرة الفردوس المفقود الأساسية تفرّق لنا بين السعادة الصادقة النابعة من الحب والسعادة الكاذبة النابعة من الشهوة؛ فحياة آدم وحواء قبل الهبوط حياة تخيلها نحن فقط حيث كانوا في سعادة لا نهاية لها، ولكن حين وجب الهبوط نراهما مثلنا يتخطّبان وراء سراب السعادة الكاذبة.

• ومن الأهداف التي قرّرها مليتون نفسه لكتابه الفردوس المفقود تبرير ما يفعله الله مع الإنسان:

(21)"And justify the ways of God to men"

فالنقد المحدثون أثاروا مناقشة حادة حول نجاح مليتون في هذا الهدف، ومعظمهم يرى أن مليتون الشاعر أخفق في هذا الهدف المزعوم؛ يقول جرييريسن: "بل إنّه يبرّر أفعال الشيطان مع الإنسان بدلاً من أن يبرّر ما يفعله الله مع الإنسان. وواضح أنّ هذا الرأي مبالغ فيه ولكن هذا هو الرأي الذي تبناه كثير من النقاد قائلين: إن فشله في هذا الهدف يكمن في عدم ارتفاعه إلى المستوى الشعري المطلوب، فهو في مثل هذه المواقف يتحول إلى واعٍ معتمدًا على الأدلة التي قلّما نقلّها من شاعر كبير.

• وقد لاحظ بعض النقاد أن محاولة ملتوون لتبرير أفعال الله مع الإنسان أو ق了他的 في تناقض شديد، فهو حين يبرر هبوط آدم وحواء قائلاً إنهما خالفاً بإرادتهما الحرة أمر الله كانا يستحقان عقاباً أشد من مجرد الهبوط، ففي مستوى شعرى عميق كان الهبوط ضرورياً ولازماً وذلك لأن الذنب وقع منها بإرادتها الحرة والإنسان حرّ. مع قدرة الله الكلية وعلمه بالحوادث قبل ظهورها- في جهده وأعماله وإرادته، ولكننا إلى جانب ذلك نرى ملتوون ظلّ يذكّر القارئ أن الله سبحانه وتعالى كان يعلم أن آدم سيقع في المعصية ويعاقب على ذلك (22).

عناصر السيرة الذاتية:

يرى دارسو ملتوون أنه حول الفن الملحمي الموضوع إلى الذاتية، يقول ليجويس إنّه الوحيد الذي يحيى في الفردوس المفقود، فهو لم يكتف بإظهار آرائه ونظرياته فحسب بل أقحم نفسه بإدماج شخصيته مع بعض شخصيات الملحمية، ويبرز مشاعره وعلمه وأعماله عن طريقها.

وأقول إن سبب كتابته الملحمية شخصي بحت، فهو لم يكن يبرر أفعال الخالق مع الإنسان بقدر ما كان يحاول تبرير أفكاره تجاه الإنجليز ما بين الفترة 1640-1660م وكان يقول لهم عن أسباب فشلهم في إنشاء مجتمع صالح ففشلهم يكمن في عدم إخلاصهم وضعف إيمانهم وذنبهم وشهوتهم، فهم أنفسهم مسؤولون عن هذا التخلف.

والعناصر الذاتية جلية في صورة الأفكار السياسية أيضاً، ففي الجزء الأخير عندما يخبر ميكائيل آدم بأنه، نتيجةً لهبوطه سيفقد حريةِه الحقيقة، كان ملتوون يتهم حكومة أو ليفر كرومويل Oliver Cromwell (1599-1658م) وكان من زعماء العساكر الإنجليزية، واستطاع أن يلغى الملكية، ويقيم النظام البرليمياني لمدة قصيرة (نفسها فشلها في الثورة).

ويرى أحد النقاد أنّه لو لم يكن ملتوون يعيش الحكومة البرلمانية الطويلة لما كانت المناقشة بين إبليس وأتباعه في الجحيم بهذه القوة والبراعة اللتين نجد هما في ملحمته.

والملحوظ كذلك أنّ أفكار ملتوون وآراءه عن المرأة والتي تتعارض في ثوابي الملحمية، مستمدّة أيضاً من حياته الشخصية، فإظهار آدم رغبته عن المرأة في أحد المواقف، ينمّ عمّا عاناه ملتوون من الحياة الروحية وخاصة بعد زواجه الأول، ثم يتغيّر سلوك آدم ورأيه تجاه المرأة، فُيُثني عليها قبلها وحسن خلقها، وهذا التغيير في الرأي موجود في حياة ملتوون نفسه وخاصة بعد زواجه الثالث.

ويكاد يتفق جميع النقاد على أن شخصية ملتوون تظهر بأقوى صورة في شخصية الشيطان، فملتوون الشّائر المهزوم يجد هويته في شخصية الشيطان الشّائر المتربّد ويدمج نفسه شعورياً فيها.

الفردوس المفقود لملتون في الرؤية التقديمة المعاصرة

والبيائلة بينهما متعددة الجوانب مثل البيائلة في الأنانية وفي الغرور والفخر، والجرأة وعدم الاستسلام، لهذا نجد وصفه للشيطان وتعاطفه معه من أقوى مواقف الملجمة عمقاً وتأثيراً.

هناك كلام كثير حول مدى أثر ذاتية الملجمة في فنّه الشعري، وهل أعطت هذه الذاتية حرارة العواطف والغناء الجميل؛ هنا بالإضافة إلى الملاحظة المهمة أن قيمة حرارة العواطف والغناء الجميل تعتبر محدودة في فن الملجم.

وعلى أية حال فإن هذه الذاتية عند بعض النقاد، أحدثت تعارضاً بين هدفه المزعوم وأدائه الشعري الحقيقى (وقد سبقت الإشارة إلى ذلك تحت عنوان الفكرة الأساسية) يقول أحد النقاد إن ملتون باعتباره مؤمناً مخلصاً، صمم على أن يبهر أفعال الله مع الإنسان ولكنّه لم يحقق ذلك في صورة الحب العاطفى المدفوع لأنّه فعل ذلك على أساس الخطاب والمواعظ الطويلة التي تختلّ أوراقاً كثيرة من الملجمة والتي تبدو في معظم الحالات غير مؤثرة في النقوس وتكون، أحياناً، مصطنعة ويتحول ملتون هنا إلى تلميذ لعلماء الإلهيات، فالأدلة الأكاديمية الباردة والخالية من العواطف لإثبات نظرياته البيتا فيزيقية لا تؤثر في قلوبنا وفي خيالنا، ويعصب علينا أن نرحب بها من شاعر مثل ملتون (23).

صورة الشيطان في الفردوس المفقود:

يرى النقاد أن الشيطان أقوى شخصيات الفردوس المفقود وفي رأى الكثير، هذه هي الشخصية التي تسيطر على أذهاننا، اثناء قراءتنا للملجمة، فهي أعظم من شخصيتي أخيه وهاكتور.

والملاحظ هنا أن تصوير ملتون للشيطان وتعاطفه معه محل خلاف بين النقاد؛ ففي العصر الرومانسي أُعجب النقاد به إعجاباً شديداً، وكلما تظهر شخصية الشيطان في الملجمة مجدها تهتزّ خيالنا فهي شخصية ضخمة غير عادية، ومرهقة غير مستريحه وجريئة متبرّدة، ولللاحظ أيضاً أن ملتون عندما يتحدث عن الخالق والملائكة يتحدى عنهم بكل حند موضوعية ولكن عندما يصور الشيطان بصورة بكل حرية وتدفق في، يقول أحد نقاد العصر الرومانسي: إن عظمة الفردوس المفقود وسرّ حياته الأدبية يكمنان في عنصر واحد وهو الشيطان، كما أن خلود الإلياذة والأوديسا يرجع إلى شخصيتهما، أكليس وأوديس.

وقد اختلفت رؤية النقاد في القرن العشرين عن صورة الشيطان في الملجمة، فالشيطان في رأيهما - كما صورة ملتون - يظهر لنرى انحطاطه التدرّيجي، والشاعر لا يتعاطف معه ولا يحاول أن يربط نفسه به بل يقدم لنا شخصيةً في طريق زوالها وانحطاطها التدرّيجي، فمن بطل إن جنرال ومن

الفردوس المفقود لملتون في الرؤية التقديمة المعاصرة

جنرال إلى رجل سياسي ومن رجل سياسي إلى رجل المخابرات ثم يتحول إلى شيء يوضع في غرفة النوم أو في نوافذ الحمام ثم يتحول إلى ضفدع فالحية... فهذه هي قصة الشيطان. وعلى أية حال فإن النقاد في هذا القرن، مع ملاحظتهم أن الشيطان يمثل الشر فقط، يسلّمون بأن شخصيته صورت في أقوى أسلوب وأشدّ براءة، الأمر الذي يجعلنا نقول إن البراعة الفنية التي ظهرت في تصوير هذه الشخصية لم تظهر في تصوير أي شخصية أخرى في الملحمة.

وكون الشيطان يمثل الشر وكونه يبقى للذنب لا يمنعاً أن نُقرّ بأن شخصيته في الملحمة لا تخلو مطلقاً من محسنات أخلاقية؛ فهو زعيم الملائكة المغضوبين عليهم، ويظل مستعداً ليؤثر على نفسه الخير الاجتماعي ويترك منفعته الذاتية في سبيل ذلك وهو شفوق، وقلبه مليء بالحب والعاطفة حيث أنه عندما قام ليخطب أتباعه لم يقدر على أن يمسك دموعه، ثم أثناء تبادلهم الرأي في الشخص الذي سيقوم بمهمة البحث عن هذا المخلوق الجديد (آدم وحوٰ) تطوع القائد الشيطان بنفسه لتحمل هذه المسئولية، فسيد القوم خادمه، وكل هذه العناصر تدلّ على عظمة الشيطان الأخلاقية(24).

العنصر البشري:

مايلز: من ملاحظات النقاد الطريفة حول الفردوس المفقود عموماً حول ملتون على وجه الخصوص

"لو كان ملتوون مكان آدم لكان أكل الشجرة الممنوعة ثم كتب كتيباً ليثبت
جواز عمله هذا وصحته"!

والجدير بالذكر أن وجود العنصر البشري أو عدمه موضع خلاف، مثل العناصر الأخرى بين النقاد؛ ففي القرن الثامن عشر اعتبرت العواطف والعناصر البشرية من روعة الفردوس المفقود وحمله الناقد، ومن نماذجه ما يوجد من مظاهر حياة آدم وحواء المنزلية مثل:

"نَامَ آبَاؤُنَا مَتَوَسِّلِينَ أَذْرَعَ عَضْهُمْ بَعْضًاً"

ومن نماذجه أيضاً حوارات الحب والعشق التي كانت تدور بينهما والتي كانت تنسيهما عما كان حولهما.

الفردوس المفقود لمليتون في الرؤية النقدية المعاصرة

يقول الدكتور جانسن: إن دور الرجل والمرأة في الفردوس المفقود محدود وضيق جداً ولا يُسم بالبشرية التي تعودنا عليها بحيث لا يتسع للقارئ أن يجد مكاناً له ليضع نفسه فيه ولو تكفل بقوته المتخيلة، فلهلا لا يجد في نفسه رغبة الاستطلاع عندهما أو التعاطف بهما.

وقد أجاب بعض النقاد عن هذا الاعتراض قائلاً بأن مليتون لم يشغل نفسه بهذه القضية لأنه وضع هدفه لكتابته الملحمية أمام المتكلق مند البداية وهو أن يحذّرنا عن هبوط الإنسان من النعيم وأسبابه، فينبغي أن لا يطالب منه العمق في تصوير شخصيتي آدم وحوّا وإبراز بشريتهما، فالرجل والمرأة في الفردوس المفقود هما الرجل والمرأة اللذان لا نعرفهما في حياتنا اليومية، ولو تناولهما مليتون بناءً على البشرية العادلة لما اختار آدم وحوّا بدل اختيار الرجل والمرأة العاديين.

هذا، وهناك عدد من مناظر مليعة بالحب والعاطفة بين آدم وحوّا والتي صورها الشاعر تصويراً بارعاً معتمدأً في ذلك على علمه بالأساطير الإغريقية وبالشعر اليوناني واللاتيني، التصوير الذي يكشف عن فطرية آدم وحوّا وبشريتهم ولا سيّما في شخصية حواء، فهي، وإن كانت تعيش في النعيم، تتّسم بخصائص مرأة العالم الذي يُوحي أكثر من آدم؛ فمجادلتها مع آدم في اليوم الذي أكلت الشجرة فيه، وغيرتها عليه واتهامها آدم بأنه هو المسئول عن كل ذلك لأنه لم يمنعها عن النهاب

Command me absolutely not to go: بالقوّة والجسم بحيث يقول:

أى كنت تأمرني بعدم ذهابي أمراً باتاً

فكل هذا دالٌ على حيوية شخصيتها وقربها من البشرية.

ولكن شخصية آدم تبدو في صورة تشبه التحجر والجمود وت تكون من عناصر الشخصية البيوروتانية المثالية عند مليتون (25).

بطل الفردوس المفقود:

ثمة آراء متناقضة، كالمعتاد، حول هذه القضية، وقد جعل إعجاب الرومانسيين بشخصية الشيطان القوية من الناحية الفنية، فقد جعلتهم يعتبرونه بطلأً للملحمة، وذلك لأن مليتون عندما يصور الجحيم أو المتمردين أو الشيطان، يصورهم بكل حرية فنية، ولكن عندما يأتي إلى الحديث عن الخالق والملائكة يمسك ويصبح محتاطاً جداً، مما السبب في ذلك؟

يحيب عنه أحد النقاد الرومانسيين وهو بلييك (وليام بلييك: 1757م-1827م شاعر ورسام إنجليزي) قائلاً: "لأن مليتون كان شاعراً صادقاً وكان من جماعة إبليس وإن لم يعلم ذلك"

الفردوس المفقود لمليتون في الرواية التقديمة المعاصرة

وهناك من يرى أن مليتون نفسه هو بطل الملحمية بدليل إدخاله العناصر والنظريات الشخصية المتمثلة في شخصيات الملحمية وأبرزها الشيطان(26).

وقيل إن المسيح هو بطل الملحمية ولكن النقاد لم يعتدوا بهذا الرأي.

ويرى معظم نقاد القرن العشرين أن آدم هو بطل الملحمية فهو، وإن لم يدخل المغامرات والمخاطر حتى يُبرّز بطولته فيها، فهو وحْوا هما اللذان في النهاية يقابلان المستقبل المجهول والمملوء بالمحن والمشقات ويعانيان من العواقب التي لا نهاية لها في الحياة الدانتوية. وصحيح أن شخصية الشيطان أكثر حيوية وفعالية وخاصة في الجزئين الأول والثاني وحتى في الثالث، وصحيح كذلك أن شخصية حواء تضم العناصر البشرية أكثر من آدم، وصحيح أيضاً أن بطولة آدم لا تساوي بطولة أكليس وأوديس وغيرهما، ولكن في النهاية هذه هي الشخصية التي تستحق أن تكون بطلة للملحمية ولا سيما لامتلاكه من بطل(27).

هذا، ومن الجدير بالذكر أن مغامرات الشيطان والأعبيه ومعاركه ورغبتها في العصيان والتمرد، يحتل كل ذلك ثلث الملحمية أى من بداية الكتاب الأول إلى منتصف الكتاب الرابع بالإضافة إلى ظهوره في ثنائياً بقية الكتب الأخرى.

مزج العناصر الإغريقية والعناصر العبرانية:

لا شك أن فكرة الفردوس المفقود عبرانية الأصل استمدّها الشاعر من الكتاب المقدس ولها ينصح كثير النقاد قراءة الكتاب المقدس لفهم أفكار الفردوس المفقود العبيقة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل نجح مليتون في استغلال هذه الفكرة استغلالاً فنياً؟(28)

يجيب النقاد على هذا السؤال المطروح قائلاً: إنه فعلًاً أعطى نصوص الكتاب المقدس الحرارة العاطفية وقوة الخيال في كثير من الأحيان.

ولكته من الملحوظ أيضًا تأثير العناصر الإغريقية في أسلوبه وفي مكونات ملحنته وخصائصها، ويلاحظ أيضًا أنه تصرف بعمقريته في مزج هذه العناصر بطريقة جعلت كثيراً من النقاد يطلقون عليها العناصر، الملتوية، ويرى النقاد أن الآثار الإغريقية في مليتون أكثر روعة وجمالاً في الناحية الشعرية من الآثار العبرانية(29).

التشبيهات في الفردوس المفقود:

تُعتبر براءة ملتوون في تشبيهاته من العناصر المهمة التي تكون فنّه الشعري الخالد. وقد يجأ ملتوون إلى التشبيهات الثنائية بعضها قصير وبعضها الآخر ضخم وطويل ويعرف بالتشبيهات الهوميورية (هو التشبيه الذي يظهر المشبه به أقوى من المشبه)، حين نراه يصف الشيطان نجدة يشبهه أولاً بالتيتانات الخرافية ثم يشبهه باللوبياثان (Leviathan) وهو وحش بحرى ضخم رهيب يرمز إلى الشر، وقد ورد ذكره في الكتاب المقدس) ولم يقتصر ملتوون في تشبيهاته على الموزنات المشهورة بل وسع في نطاقها وعمق جوانبها فهو حين يشبهه هجن الشيطان بدائرة القمر يحيط الخيال بالدهشة والغرابة.

ومن مميزات تشبيهاته أنها تقرب إلى القارئ عناصر العالم بعيد عن تجربة الإنسان وتعزّف للإنسان هنا العالم الذي ابتكرته قدرة الشاعر الإبداعية (30).

وعلى أية حال فإن التشبيهات الجيّدة تكتفى بالجزئين الأول والثاني، وبقية الأجزاء تكاد تخلي منها الأمر الذي جعل التقىادي ينكرون على دراستهما فقط في معظم الأحوال وذلك لقيمتها الفنية وبراعتها الأدبية.

المراجع والهوا ملخص

(1) انظر للتفصيل : The Cambridge campanion to Milton Ed. Dennis Danielson, second edition Cambridge University Press 1999, PP xiv-xvi, 1-25.

(2) كانت هذه الملحمة في البداية تتكون من عشرة كتب ثم أعيد النظر فيها في عام 1674م وأصبحت لها اثنى عشر كتاباً حسب طريقة إنياده ورجل الشاعر الروماني (70-19 قبل الميلاد) وتتفاوت هذه الكتب الاثنى عشر في طولها، فأطولها الكتاب التاسع والذي يتكون من 189 سطراً وأقصرها الكتاب السابع وهو البكون من 640 سطراً.

(3) انظر للتفصيل : Jhon Milton's Paradise Lost , Book-1 A Critical study with text.Dr. S. sen, Ms. Kalpana Rajaram and Ramj Lal- Kitab Mahal Lahore.

(4) بدون تاريخ الطبع ص: 10-13 (وسوف أشير إلى هذا المرجع بذكر عنوان الكتاب وبالإشارة إلى رقم الكتاب والصفحة)

(5) المرجع السابق الكتاب الثاني ص: 23.

(6) أول من استخدم هذا المصطلح هو ميسو آرنلد (Mathew Arnald: 1822 - 1888) وهو شاعر وناقد وكاتب إنجليزي، وقد اشتهر بكتاباته حول قضايا المجتمع التي عايشها. ومن أعماله النقدية المشهورة: أي المقالات في النقد و The study of poetry Essays in criticism

(7) Mathew Arnald Ed. Miriam Allott & Robert H.Super, Oxford University press 1986.

(8) الكتاب الثاني ص: 34.

(9) Rutledge U.S.A 1988, P. 58-59. Michael Bell F.R. Levis من تأليف

(10) الكتاب الأول ص: 26.

(11) Harverd university Stonley Fish Surprised by Sin: the reader in Paradise lost press, 1998 PP-142.

(12) Virgil (ورجل) شاعر روماني عاش بين 70-15 قبل الميلاد وله أعمال شعرية عديدة ولكنّه اشتهر بملحمته المسماة: أي الإنياد التي ألفها خلال عشر سنوات الأخيرة من حياته وهي قصة الأمير الإنياس ومخامراته المتعددة. وأيّاً Dante (دانتي 1321-1265م) فهو شاعر ايطالي وقد ألف الملحمة الشعريّة المعروفة ب Divine Comedy أي الكوميديا الإلهية.

(13) راجع المرجع السابق ص: 35.

(14) Homer (هوميروس) شاعر إغريقي مؤلف الملحمتين : الإلياذة والآدیسا ويعتبر أعظم الشعراء القدماء لدى الحضارة الغربية. وأيّاً Shakespeare (شيكسبير 1564-1616م) فهو أكبر شاعر وكاتب مسرحي في تاريخ الأدب الإنجليزي ورغم مضي أكثر من ثلاثة قرون مازال يحظى بالاهتمام والدراسة والاحتفال ليس لدى أبناء اللغة الإنجليزية فحسب بل لدى أبناء اللغات الأوروبية الأخرى كذلك.

الفردوس المفقود لمilton في الرؤية النقدية المعاصرة

(14) انظر المقال : Battle of the Bards Milton & Shakespear gary taylor والمنشور في : Time Magazine 21-20 مص 2008 م، ص 15 مايو.

(15) paradise Lost الكتاب الثاني ص 43. وأمّا البرت كوك (1853م-1927م) فهو دارس اللغة والأدب الإنجليزيين القداميين الأمريكي - وميكال (1527م-1469م) كاتب ومحفل إيطالي مشهور، عاش خلال الفترة الذهنية الأوروبية الحديثة ويعتبر مؤسس العلوم السياسية الحديثة.

(16) المرجع السابق

(17) المرجع السابق الكتاب الأول ص 32.

(18) المرجع السابق ص 110.

(19) انظر لهذه المناقشة: المرجع السابق ص 34-30.

(20) Paradise Lost الكتاب الأول ص 80.

(21) المرجع السابق ص 54.

(22) انظر للتفضيل ص 59-59 من المرجع السابق.

(23) انظر لهذه المناقشة : The Cambridge companion to Milton المذكور إعلاه ص 132، 145، 144، 114.

(24) Paradise Lost الكتاب الثاني ص 64-69 و كذلك المرجع السابق ص 162 وما بعدها.

(25) Paradise lost الكتاب التاسع ص 55-59.

(26) وفدي هذه النظرية التي استغرب منها القادة والآخرون، دينيس سورات (Denis Saurat) 1958م-1980م و هو ناقد و كاتب إنجليزي- فرنسي وقد ألف كتاباً بعنوان: Milton: Man & thinker وناقش فيه نظريته هذه بالتفصيل انظر الكتاب في الموقع التالي:
openlibrary.org/books/ol5911483M/Milton_man_and_thinker

(27) راجع لهذه الآراء والمناقشة المفصلة لها: Paradise Lost الكتاب الأول ص 72-78.

(28) 159.-144 The Cambridge Companion to Milton المذكور إعلاه ص 144-159.

(29) Paradise Lost الكتاب الأول ص 200-203.

(30) المرجع السابق ص 110-112.